

## استغلال الأعمال الأنتروبولوجية من طرف العسكريين الفرنسيين لصالح الاحتلال

### "السنوات الأولى من احتلال الجزائر"

بريجة شريفة

جامعة وهران 02

الملخص : كانت الدراسات الأنتروبولوجية بالجزائر، دراسات عسكرية، حتى أنها كانت تُسمى بـ"الأنتروبولوجيا الاستعمارية" لأنها كانت تُستعمل من طرف الطبقة العسكرية الفرنسية خلال احتلال الجزائر، بسبب المقاومة الشديدة التي واجهوها، فأصبح لزاما عليهم إيجاد استراتيجيات ناجعة لهزم تلك المقاومات الغير منتظرة. فبدأ الاهتمام بهذا النوع من الدراسات لمعرفة أوضاع وأحوال السكان المحليين، لما لهم من قوة دفاعية ومن تنظيم سياسي واجتماعي ومن معتقدات دينية وثقافة معقدة، حتى يتمكنوا من معرفة المنافذ السهلة لقهر كل أشكال المقاومة آنذاك.

#### مقدمة :

بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م بدون استكشاف مسبق<sup>(1)</sup> وبدون أن يعرفوا الكثير عنها، ومع ذلك توغلت قواتها بالمنطقة؛ فاكتشفوا حين ذاك بأن هذه الجهة من افريقيا، تتميز بالعديد من الميزات والخصوصيات والأوضاع الحضارية الغير المنتظرة، لم يتخيلها قادتهم، الذين غامروا في ميدان مجهول عند احتلالهم للجزائر. وتدرجيا وأمام المقاومة الشديدة التي واجهوها، بدأ الاهتمام بمعرفة أوضاع وأحوال السكان المحليين وما لهم من قوة دفاعية ومن تنظيم سياسي واجتماعي ومن معتقدات دينية ومن ممارسات يومية ومن ثقافة بصفة عامة، حتى يتمكن الضباط، من وضع خطة عسكرية لاحتلال مختلف الجهات، وبهذا أصبحوا في طليعة المهتمين بهذه البحوث والدراسات الأنتروبولوجية تنفيذا للخطة المسطرة من طرف السلطات العليا للدولة الفرنسية التي أصرت على الاحتلال الكامل للجزائر.

ففي مرحلة أولى اعتمدوا على مترجمين عسكريين، ثم تعلموا اللغة العربية، بهدف تسهيل عملية الاتصال والتفاوض مع تلك القبائل والجماعات التي أظهرت أمامهم بطولات في معارك شديدة وبرهنت على شجاعة قوية في مقاوماتهم... وما ساعدهم أيضا على الاكتشاف والبحث هو استعانتهم بالمخططات القديمة التي كانت تتواجد عند العائلات الشريفة والذاكرة الشفهية والملاحظة عن كتب (الملاحظة بالمشاركة) لذلك نجد مؤلفاته تلم بتفاصيل مبهرة عن المجتمع الجزائري آنذاك.

وقد نشرها الكثير من المؤلفات حول ثقافة المجتمع الجزائري بين 1830 و1900م مستعينين بالنظريات التاريخية والأنثروبولوجية السائدة في ذلك الزمن في المخابر الأوروبية، والمحتقرة لثقافات الشعوب الغير الأوروبية وللدyanات الغير المسيحية.

فترك لنا التاريخ العديد من الكتب والمؤلفات التي تتناول مواضيع أنثروبولوجية ثقافية مثل: المعتقدات الروحية والعادات والطقوس والممارسات والزوايا والمرابطين والتصوف والطرق وأبحاث إثنو- أنثروبولوجية حول الطبع والتصرف عند المجتمعات، وحياتهم وسلوكياتهم كما هو الشأن في العديد من الأوساط الأوروبية آنذاك، بهدف وضع خطط تسهل عملية الاحتلال للجزائر.

فالجنرالات قدموا معلومات مفصلة حول شتى المواضيع الهامة التي اكتشفوها حول المجتمع الجزائري تتخللها ملاحظات وتحذيرات تخبر القارئ الفرنسي عن شتى الأوجه التي يتسم بها الفرد "العربي" وتفاصيل مهمة وليدة بحوث ميدانية عالية الدقة عن ثقافة المجتمع الجزائري من معتقدات وطريقة التفكير والتصورات والقيم، كحسن الضيافة والكرم والصدقة والطقوس الدينية من وضوء و صيام، والزوايا، وقدموا ترجمته لبعض الأغاني، وأشاروا إلى الحروب التي كانت تنشب بين القبائل وأعطوا تفاصيل عن الصحراء والتوارق وعلاقتهم بالجمال والخيول وعن المجتمع القبائلي وممارسات يومية وسلوكيات أخرى توصلوا إليها.

تلك الأعمال تتمثل في تقارير عسكرية سرية وعدة دراسات وكتب ألفوها لنشرها في الأوساط الفرنسية وذلك خدمة للأهداف العسكرية والسياسية المسطرة قصد الاحتلال الكامل للبلاد وبهدف التعريف بالمنطقة المحتلة وما مدى تأخرها، سعيا منهم في تقديم تبريرات، خاصة اتجاه الأوساط السياسية والمفكرين الفرنسيين الذين تشككوا في أهمية هذا الاحتلال، حتى تتبين لهم أهمية بسط يد حضارتهم على هذه الجهة، إضافة الى البرهنة أمام الدول الأوروبية بأن احتلال الجزائر يعد مفخرة وعظمة لفرنسا.

ونظرا لكثرة المؤلفات في هذا الميدان، اقترحنا ثلاث كتب فقط، لثلاثة ضباط ذوي رتب عالية بالجيش المحتل وهم كالتالي: أوجان دوما \_ جول كومبون \_ كورناي تروملي<sup>(2)</sup>.

كتابه "سلوكات و تقاليد الجزائر" *Mœurs et coutumes de l'Algérie* يُعتبر من أهم مؤلفات "دوما" فهو بحث أنثروبولوجي قام بإنجازه سنة 1853 قسمه إلى ثلاثة أجزاء (التل و منطقة القبائل و الصحراء) كل جزء يحتوي على تفاصيل مهمة وليدة بحوث ميدانية عالية الدقة عن ثقافة المجتمع الجزائري ، توصل إليها بفضل تعلمه للغة العربية وإطلاعه كذلك على الدين.

فوصف منطقة القبائل والصحراء ، مع ذكر مقتطفات من الأغاني العربية و منشآت للأمير عبد القادر، كما استعمل مفردات وجملة عربية و أمازيغية كتبها بالأبجدية الفرنسية وترجمها وأعطى معناها.

كما بحث الجنرال أيضا عن أصول التسميات: كتسمية الصحراء و مشتقاتها ك: الفيافي ، الخلى، القيصار الفلات... وأصل تسمية "القبائل" التي وجد لها عدة روايات وحتى طريق إسلامهم.

وبحث حول أهل البادية أو الرحل وعن نشأة وتشكل القبيلة عندهم ، التي تنشأ بتلاحم الأسر التي تجمعها رابطة الدم وأحيانا تتوسع عن طريق التحالفات مع أسر أجنبية مع وجود عدة تقسيمات لها) القسمة، الفخذ، الروابعة، الفرقة...). بحيث اعتبرها المستعمر وحدة سياسية وإدارية.

وبحث الجنرال أيضا عن طبقات المجتمع الثلاث التي لها مكانة في المجتمع، ولها كل القوة والسلطة :

- طبقة شرفاء النسب أثبتوا انحدار نسبهم من السيد فاطمة الزهراء (بنت الرسول ص) والذين يسموا بالشرافة.
- الطبقة العسكرية أو السلطة الزمنية هم منحدرين من أسر قديمة أو قبيلة معروفة لجواد Djouads-
- الطبقة الدينية أو المرابطين هم الذين حافظوا على الدين، والذين كانوا يعملون على إطفاء نيران الحروب بالمصالحة بين القبائل عن طريق "النية"... كما تخول لهم سلطة عقد الزواج أو الطلاق ويذكر بعض المرابطين ك: مولاي الطيب و مولاي عبد القادر...

وتناول الجنرال أيضا، الجانب الديني، خاصة الزوايا و كيف أنه يرأسها شيخ يدعى "سيدي" وعن دورها الذي يرمي الى توفير الأكل والشرب والمأوى للجميع، وتأثير المرابطين عند القبائل ووجود الزوايا والتزامهم بالزكاة والعشور والتي يعتبرها الجنرال ضرائب. كما يمتازون بالتعاون في العمل (التويضة)...

وذهب الجنرال من خلال دراسته الأنثروبولوجية الى البحث في ميدان الطقوس والعادات وممارسات دقيقة، وبحث أيضا عن التشكلات الاجتماعية والقوانين الخاصة بالمجتمع القبائلي وتقاليد الزواج والاحتفالات التي تقام بمناسبة الولادة أو الموت.

## 2 - الجنرال تروملي Corneille Trumelet :

ألف كتابه 'الجزائر الأسطورية: في الحج هنا وهناك إلى قبور أهم أصحاب المعجزات في الإسلام، التل و الصحراء' *L'Algérie légendaire : en pèlerinage çà et là aux tombeaux des principaux thaumaturges de l'Islam, Tell et Sahara* سنة 1892م قسمه إلى قسمين الأول في الحج - أي زيارة أضرحة - يبدأها من الجنوب الغربي إلى الجنوب الشرقي والفصل الثاني في الزيارات من الشرق إلى الغرب.

يُعد هذا المؤلف خلاصة لرحلاته (والتي سماها بالحج) التي قام بها بأرجاء الوطن بدءاً من الجنوب ثم من الشرق إلى الغرب؛ أحصى فيها المرابطين الذين صادفهم في رحلته وأهم مميزاتهم وكراماتهم وعلاقتهم بشعبهم ومعجزاتهم وكل ما يلم بهم، ليخلص إلى فكرة عامة ودقيقة عن المسألة الدينية الإسلامية بالجزائر وطابع قداسة الأولياء وعلاقتهم بالدين.

وأشار الجنرال تروملي في بداية مؤلفه، إلى أهمية هذا النوع من البحوث حول التقاليد الإسلامية والتي تعمل على تدعيم متطلباتهم السياسية والتجارية والحضارية من أجل اكتساب قوة للتوغل بمنطقة الشمال الإفريقي بدون عوائق. وركز كذلك على أهمية دراسة أحوال الأمور المدسوسة وأسرار الجماعات التي سيصادفونها؛ وكيف أن التوصل إلى هذا سيكون بعرفة أسطورة هذا المجتمع المسلم ومعرفة قصته. ودقق في بحثه حول الشخصيات المعروفة أي القديسين أو المرابطين، وأصول نشأتهم بالشمال الإفريقي.

## 3 - الجنرال كوبون Jules CAMBON :

يعتبر كتابه 'الطرق الدينية' *Les confréries religieuses musulmanes* هو الآخر من الدراسات الكولونيالية الفرنسية التي اهتمت بالحياة الدينية في المجتمع الجزائري خاصة وفي المجتمعات الإسلامية عامة، أشرف على إنجازها كامبو، الذي جمع المعطيات والوثائق وقام باتصالات مع مختلف الفاعلين في الميدان وكلف مصيرين إداريين بالتأليف كما أشار إليه في مطلع الدراسة.

فزيادة على أن هذا العمل يعتبر خزان من المعلومات والمعطيات حول الحياة الدينية في مختلف المجتمعات (الجزائر وشمال إفريقيا وكل الفضاء الثقافي الذي ينتمي إلى الدين الإسلامي) والتي جمعها طيلة سنين توغله في الميدان وخاصة زيارة المؤسسات والأطراف الفاعلة في الميدان الديني، ونظراً لأن هذا البحث، الذي جاء 67 سنة بعد الإحتلال، يعتبر حوصلة أو استنتاج لأبحاث سابقة قام بها جنرالات آخرون قبله ويتسم بمعرفة أوسع للميدان وأدق للتيارات الروحية الموجودة في المجتمع.

كما يتميز بحثه باتجاه واضح الأهداف وهو الكشف المدقق للقيم الروحية التي تكون أخلاقيات المجتمع الجزائري حتى يتمكن المحتل الفرنسي من أن يقضي عليها ، وبهذا يهيمن نهائيا على المجتمع الإسلامي. لهذا تناول دراسة واسعة وشاسعة للقيم والمعتقدات والمعطيات الروحية والتاريخية والاجتماعية والسياسية في المجال العربي والإسلامي عامة كما يتبين من خلال بنية الكتاب ومضمونه عبر الفصول التي يتناول خلالها كل الميادين الرئيسية بإسهاب وتفصيل... وبهذا فهو يكتسب مستوى أعلى من سابقه في المجال... فأعطى وصف حقيقي للمؤسسات الدينية نظرا للتحويلات التي طرأت على هذا الميدان.

واعتبر أنه من الضروري معرفة أصول الدين الإسلامي والتاريخ والمعتقدات، بتناول تاريخ العرب والجزيرة العربية قبل الرسول، العرب وأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم والنظام القبلي عندهم ولسانهم وشعرائهم وآدابهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم قبل الإسلام منذ سيدنا إبراهيم..

وبحث عن التصوف: بدايته، وتطوره، والمدارس الصوفية، والمبادئ الأساسية للتصوف.. وتكوين الزوايا وتنظيمها: الشيخ، الخليفة، النائب، المقدم، ودور كل واحد ووظائفه الدينية المسطرة حسب الطريقة والمهام الاجتماعية خدمة لمصالح الزاوية والمجتمع وتفرعاتها عبر الجزائر... والدور السياسي للزوايا والطرق.

#### تحليلات واستنتاجات:

هذه الكتب الثلاث التي تصفحتها تعتبر عينة بسيطة مما كتبه العسكريين الفرنسيين عن المجتمع الجزائري، والتي تُعد دراسات انثروبولوجية خدمت السلطات الاستعمارية كباقي الوسائل الفتاكة للتفرقة ونشر الفتنة وللقضاء على كل المكتسبات الحضارية والروحية للشعب الجزائري.

هذه المؤلفات من نتاج استعماري، ولكن أضحت إرث انثروبولوجي مكسب لنا، لما تكتسبه من أهمية تاريخية وسياسية هامة تعكس لنا كيف سخرت دولة عظيمة وسائلها العسكرية والعلمية (ومفكرها أصحاب النظريات) لطمس أي حضارة مهزومة باستعمال وسائل راقية ومتطورة في زمنها، للقضاء على القيم الروحية لبلد محتل.

إن هذه الدراسات الانثروبولوجية المتعددة والمسهب، تعطينا بعد مرور الزمن و تغير الأوضاع نظرة شاملة عن المجتمع الجزائري وأحواله إبان الاحتلال وما تعرض له من مكائد من طرف دولة متحضرة.

هذه الدراسات لا تحمل في طياتها العلم الانثروبولوجي في حد ذاته، بالعكس، نجد أن كثرة المؤلفات في هذا المجال تتضمن كمية معتبرة من المعلومات التي يتخللها تحليلات، غير علمية، من طرف مؤلفيها حسب مكانتهم وأهدافهم السياسية المقصودة، أنجزت من طرف عسكريين، خاصة ضباط، وإداريين مستعنين بالانثروبولوجية

السائدة في ذلك الزمن في المخابر الأوروبية، والمحتقرة لثقافات الشعوب الغير الأوروبية وللديانات الغير المسيحية، كل ذلك خدمة لغايات دقيقة تهدف لترسيخ الهيمنة الحضارية الأوروبية الاستعمارية .  
وذلاحظ تفطن العسكريين الفرنسيين إلى أهمية هذا النوع من الدراسات الانتروبولوجية واستغلالهم لها، لتدعيم متطلباتهم السياسية والاقتصادية و الحضارية، ومن أجل اكتساب قوة للتوغل بمنطقة الشمال الإفريقي بدون عوائق، وحتى يتسنى لهم البقاء في الجزائر والاستمرارية في الهيمنة عليه.  
الاحالات والهوامش :

1. ولو أن في بداية القرن 19 كان فكر Napoléon في إيجاد طريقة لاحتلال الجزائر لكن مشروعه بقي دون تنفيذ نظرا لإشغاله وانشغالاته العسكرية في القطر الأوروبي وفي مصر لمواجهة أجلترا...  
2. نقصد هنا الاعمال التالية :

**Daumas**, Eugène ;1853: « Mœurs et coutumes de l'Algérie , Tell , kabylie, sahara » ...  
Paris, Librairie Hachette et cie, rue Pierre-Sarrazin, n° 14  
**Trumelet**, Corneille ,1892 ; « l'Algérie légendaire en pèlerinage aux tombeaux des principaux thaumaturges de l'islam (tell et sahara) . »  
Paris, Editeur Augustin Challamel, 17, rue jacob, Librairie Adolphe Jourdan imprimeur-libraire, place du gouvernement.  
**Cambon**, Jules, 1897, ( sous le patronage de :) « Les Confréries religieuses musulmanes » Par Octave Depont et Xavier Coppolani –Administrateurs de Communes Mixtes, Alger.  
Publié sous le patronage de Jules CAMBON, Gouverneur Général de l'Algérie.  
ALGER, TYPOGRAPHIE ET LITHOGRAPHIE ADOLPHE JOURDAN, IMPRIMEUR-LIBRAIRE-ÉDITEUR  
4, PLACE DU GOUVERNEMENT.